في باريس ..

كانت لنا أيام[1]

الشيل والحط في أكل البطّ!

لا بُدّ أن بين الفرنسيين والبط ثأراً تاريخياً لا يقارن بثأرهم التاريخي مع الألمان والإنجليز (يبدو أن للفرنسيين ثأراً تاريخياً مع كل من «وما» لا يتكلم الفرنسية، والبط حسب علمي لا يتقنون هذه اللغة). المهم أن فرنسا تجري يومياً عملية إبادة عرقية للبط. كل مطعم، صغيراً كان أو كبيراً، غالياً أو رخيصاً، في حيّ أرستقراطي أو في حي شعبي، يقدم عشرة أنواع من البط على الأقل (غير الخَرْدة).

ولا أدري لماذا تثور ثائرة الشمطاء الشقراء بارجيت باردو على المسلمين الذين يذبحون الخراف في عيد الأضحى. ولا تثور ثائرتها على الاستئصال المنهجي للبط.

(١) عن «استراحة الخميس» المنشورة في الوطن (١٩٩٩م).

المهم أن أم البنت والبنين تحبُّ البط (بعد أن تعلّمت اللغة الفرنسية) وتحبُّ «السوس» المقدم مع البط. وكاتب هذه السطور يرى أن أكل البط أكثر من مرة في سنة عذاب لا مُبرّر له. وكاتب هذه السطور يحب الأكلات البدائية كالكبسة والمحمّر وهامبورجرات ماكدونالد والبطاطس المقلية مع الكتشب والسباجتي (ومن يعتقد أن إنساناً يسمن دون سبب فقد أخطأ). وكاتب هذه السطور لا يكره شيئاً كراهيته «للسوس» التي تأتي مكوّنة من ألف مادة ومادة، جميعها مجهولة ومعظمها مضرّة بالصحة العامة.

وخلال تجربة اليونسكو أكلت من البطّ ما يجعلني يومياً أهم بالطيران والبطبطة (هذه كلمة من اختراعي تعني كلام البط). وفي باريس، حتى عندما لا تطلب بطّاً يأتيك الجرسون بشيء «فوق البيعة» من المطبخ تكتشف أنه عضو في البطة لم يكن يخطر ببالك أنه صالح للاستهلاك البشري. وكاتب هذه السطور - مادح نفسه الذي يقرئكم السلام- يحاول أن يكون زوجاً

مثالياً ومن هنا فهو يتجلّد وهو يأكل البط، إرضاء لأم البنت والبنين تجلّد شاعرنا القديم للشامتين يريهم أنه لريب الدهر لا يتضعضعُ.

ومن منطلق المودّة الزوجية المثالية دعوت أم البنت والبنين إلى مطعم شهير بتقديم البط (لا أود ذكر اسمه حتى لا أفقد رأسي تحت مقصلة الجيلوتين). ذهبنا إلى المطعم الشهير وجاء الجرسون وأمرنا أن نطلب بطة واحدة نقتسمها. وأنا لا أخاف من أحد بعد خوفي من أم البنت والبنين كما أخاف من جرسونات فرنسا. وافقت أم البنت والبنين على «اقتراح» الجرسون، وإذا وافقت هي فأنا أوافق على طول الخط.

بعد نصف ساعة جاء جزّاران طويلان عريضان هجما على بطة مسكينة وأجريا عليها عملية جراحية دقيقة ببراعة يحسدهما عليها صديقنا السير مجدي يعقوب. ثم جاء جرسونان بطبقين وضعا واحداً أمام ضيفة الشرف وواحداً أمام المضيف، الزوج المثالي. وكان على كل طبق قبة فضيّة هائلة تزري بقبة تاج

محل. نزعت القبة الفضية، وتأملت في طبقي فوجدت سائلاً بنياً لزجاً يطفو على عجايب وغرايب (كما يقول صديقنا يوسف الشيراوي عندما يصف أصدقاءه). قلت لأم البنت والبنين بذعر حاولت جهدي إخفاءه:

- ما هذا؟

أفادتني «أفادها الله»:

- هذه بطة.

- أعرف أن هذه بطة. أسأل عن هذا السائل اللزج البني المخنز

- آه! هذا «سوس» يُقدّم مع البط.

وإذا كان شكل «السوس» مرعباً، فطعمه - أجاركم الله! - أكثر من مرعب. كنت أفكر في طريقة دبلوماسية تمكنني من تجاهل هذا السائل الجهنمي عندما طبّ علينا مدير المطعم، وهو رجل أشيب وقور .. تحسبه، لأول وهلة، فيلد مارشال (وربما كان كذلك في السابق). اهتبلت (وهذه تعني انتهزت ولا علاقة لها

بالهبل) الفرصة وأبعدت الطبق قليلاً وسألت الفيلد مارشال عن تاريخ المطعم. انطلق الرجل يحكي تاريخاً دموياً فاجعاً لا يختلف عن تاريخ قلعة العم دراكيولا. كان المطعم يوماً ما بالفعل قلعة يسجن فيها الناس ويُعذَّبون ويُعدمون. ثم هدمه الثوّار أثناء الثورة الفرنسية (يمدّونها والله الثوار الذين هدموا هذا المكان !). ثم أعيد بناؤه من جديد (لاحول ولا قوة إلا بالله).

في هذه الأثناء عاد الجرسونان يغيّران الأطباق، ولاحظ الجرسون المكلف بإرعابي أني لم ألمس محتويات طبقي. منحني تلك النظرة القذرة التي يحاول جميع جرسونات العالم -بلا جدوى- أن يتعلموها من جرسونات فرنسا. وصرخ:

- ألم يعجبك؟

أصابتني رعدة خفيفة خاصة وقد لاحظت بطرف عيني قدوم الجزارين مرة أخرى بسكاكين طويلة لامعة، وتمتمت:

- حساسية!

انهمك الجزارون مرة أخرى في العملية الجراحية، وجاء الجرسونان بطبقين جديدين يحملان أجزاء جديدة من البطة القتيلة.

قلت لأم البنت والبنين:

- ألا تنتهي هذه البطة؟ ألم نأكلها قبل قليل؟!

قالت - ولا ينبيك مثل خبير-:

- ما جاء من قبل كان الجلد والجناحين. وهذه بقية البطة.

في هذه الأثناء عاد الفيلد مارشال ووضع أمامي بطاقة «بوست كارد» تحمل صورة المطعم (مستعد لإرسالها إلى أي قارئ كريم يهوى تعذيب الذات). وعلى ظهر البطاقة جملة تقول «البطة التي تأكلها الآن رقمها ١,٩٥٠٠,١١».

قلت لضيفة الشرف وأنا أرتعد مرة أخرى:

obeikandl.com

- هذا المكان ذبح قرابة مليوني بطة. هذه ساحة حرب لا مطعم. هذه أم المذابح.

قالت بالواقعية النسوية الشهيرة:

- حدث هذا عبر ١٥٠ سنة.

نظرت إلى أجزاء البطة، وتصورت أرواح مليوني بطة ترفرف فوق رأسي، وفوقها ترفرف أرواح الأبرياء الذين أعدموا في هذا المكان التعيس، وفوقها ترفرف أرواح الثوار الذين هدموا هذا المكان التعيس، وأصبت، لأول مرة في حياتي، بانعدام شهية كامل شامل.

في هذه الأثناء عاد الجرسون ولاحظ أني لم ألمس طبقي فمنحني النظرة إياها، وقال:

- لم تعجبك؟!

قلت:

-فظيع! تحياتي للطباخ.

قلت لأم البنت والبنين متوسلاً:

- هل بالإمكان أن أطلب «كتشب»؟

قالت مذعورة:

- «كتشب»؟! هل تظن نفسك في «ماكدونالد»؟! إذا طلبت «كتشب» فسوف يطردوننا فوراً.

في هذه الأثناء عاد الجزاران بالسكاكين اللامعة، ولما كانت البطة المسكينة قد قُطّعت، فقد أيقنت أنهما قَدِما لإجراء العملية الجراحية الدقيقة عليَّ.

قلت لأم البنت والبنين:

- أشعر بمغص مفاجئ (وهذا لا يدخل في باب الكذب بل في باب الدفاع عن النفس).

قالت أم البنت والبنين:

- اصبر! هذه بطة لذيذة ولا أود تركها.

بعد لأي وعناء أنهت ضيفة الشرف ما على طبقها، وعرضتُ عليها بشهامة لم تعهدها من قبل فيّ أن أعطيها ما في طبقي ولكنها اعتذرت.

جاء الفيلد مارشال يتبعه الجرسونات يتبعهما الجـــزاران ولم يكن هناك أدنى شك أنني على وشك المثول أمام محكمة عسكرية بتهمة عدم أكل البطّة رقم ١,٩٥٠٠,١١. قفزت موشكاً على الهرب. إلا أن ضيفة الشرف ذكرتني بلباقة:

- لم تدفع الحساب!

دفعت الحساب، وخرجت وفرائصي ترتعد، وقضيت ليلة مليئة بالكوابيس رأيت نفسي فيها وقد تحولت إلى بطة بشرية تمزّقها سكاكين الجزارين وتحمل رقم ١٢ر٩٥٠٠ر١.

في الصباح، أعلنت، لأول مرة في حياتي الزوجية، التمرّد والعصيان وقلت لأم البنت والبنين:

- لا بطّ بعد اليوم! لا بطّ بعد اليوم! لا بطّ بعد اليوم!

وابتسمت هي ولم تقل شيئاً.

الحَمَام: سلمنا من القوم - طحنا في السرّية!

على أثر تمردي، قرّرت أم البنت والبنين مجاملتي منطلقةً من شعورها الصادق بأنه لا ينبغي للمرء أن يدخل معركة مع الأخ ماتسورا، والخال سراج الدين، ومع البط في الوقت نفسه، قرّرت، مشكورة، أن تقلع مؤقتاً عن أكل البط.

عندها اكتشفت أن للفرنسيين ثأراً تاريخياً مع الحَمَام لا يقل في ضراوته عن ثأرهم التاريخي مع البط. اكتشفت، ويا لهول ما اكتشفت، أن الأشياء الأخرى الموجودة في كل «مانيو» غير البط، هي حَمَام من نوع أو آخر.

وأنا، من حيث المبدأ، لا أتحفَّظ على الحمام، خاصة إذا كان من فئة الزغاليل البلدي وجاء محشوّا بالفريك، وهذه أكلة لا يتقنها غير أشقائنا المصريين. مشكلتي مع حمام فرنسا أنه يقدم على هيئة شرائح رقيقة لا تكاد تُرى (العملية الجراحية نفسها) وهذه الشرائح تطفو

فوق سوائل مختلفة تذكرك بلوحات بيكاسو في مرحلته البنفسجية. قلت:

- يا أم البنت والبنين! هذي مو حالة (وهذا التعبير بدوره من تعابير العم يوسف الشيراوي الشهيرة). إما بطّ وإما حمام! أين الخرفان والتيوس والعجول وسمك الكنعد والهامور والزبيدي؟! قولي يا أم البنت والبنين! إلى متى أتعرض للمهانة والمذلة على يد جرسونات باريس الذين يزجرونني زجراً ويدعونني دعّاً ويتركون على طبقي أشياء لا نعرفها نحن ولا أنتم؟! يا أم البنت والبنين! ارحمي هواني على الجرسونات وانظري الجرامات التي فقدتها من وزني ودعينا في فندقنا هذا نطلب هامبورجر وسباجتي ونحاول الحصول على شيء من الرز «البسمتي» أو حتى الرز «الهورة».

طنّشت أم البنت والبنين! ولكن يا لعدالة السماء!! كنا يوم الأحد في مطعم فاخر - ليس له تاريخ دموي حسب علمي ولا يسجّل أرقام ضحاياه في بطاقة

«بوست كارد»- عندما جاء الجرسون متألقاً كأنه الصدر الأعظم أيام زمان. قالت له أم البنت والبنين:

- أودّ أن أبدأ بسلطة خضراء.

رغم أن أم البنت والبنين قالتها بلغة فرنسية صحيحة (حسب علمي المحدود) وبلكنة لا تكاد تظهر، إلا أن الصدر الأعظم تجاهل الجملة وأخذ «يقترح» عليها شيئاً آخر تبدأ به.

أم البنت والبنين -عادة- امرأة طيبة مسالمة، لا تحب العناد ولا المشاكل، إلا أنها هذه المرة قرّرت إعلان التمرد والعصيان. قالت للجرسون المهيب (مع الاعتذار للمهيب إياه):

- أريد سلطة خضراء!!

هنا اندفع الجرسون المهيب في محاضرة تتخلّلها إشارات باليد وحركات بالأرجل، وبدأ يحمرّ، وتنتفخ أوداجه، حتى أصبحنا «فرجة» للناس.

وكانت خلاصة المحاضرة أنه إذا كانت ضيفة

الشرف تودّ سلطة خضراء فكان المفروض أن تذهب إلى «بقالة الخضار» وتأكل خسّ حتى تشبع أما في هذا المكان المشهور بالبط والحمام فلا يجوز طلب سلطة خضراء.

من بعيد كان جزّاران يرقبان المشهد باهتمام متزايد والسكاكين تبرق في الأيدي.

الكثرة تغلب الشجاعة!! أكلت أم البنت والبنين ما أمر الجرسون بأكله - وعندما عدنا إلى الفندق قلت:

- اللهم شماتة!! وألف شماتة!!

قضينا بقية الوقت في باريس نعيش على الهمبورجر والسباجتي وكثير من «الكتشب».

تعظيم سلام. لحامل الوسام !

ذات يوم، ذهبت في معية الملك خالد -رحمه الله- إلى فرنسا، ضمن وفد رسمي، وفي نهاية الزيارة تلقيت، وباقي أعضاء الوفد، وساماً من الرئيس ديستانج.

obeikandi.com

بعدها بسنتين زارنا الرئيس ميتران في المملكة زيارة رسمية وأمرني الملك فهد بمرافقته. بعد انتهاء الزيارة، طلب السفير الفرنسي في المملكة موعداً، وجاء يتأبط خيراً، وساماً من الرئيس ميتران. معلومات كاتب هذه السطور في الأوسمة وطبقاتها لا تختلف كثيراً عن معلوماته في أصناف «السوس» الفرنسي. قلت للسفير:

- أشكر فخامة الرئيس على عطفه. وبالمناسبة، سبق أن منحني الرئيس ديستانج وساماً. كيف أتعامل مع وسامين من دولة واحدة؟

قال السفير:

- الوسام الأول كان وسام «ميرت» -الاستحقاق باللغة العربية، والله أعلم- أما هذا الوسام فهو أكبر الأوسمة الفرنسية «لاجون دي نور» وسام الشرف الشهير الأشهر.

أضاف السفير:

-المرء في فرنسا والدول الفرانكوفونية يحتفل

احتفالاً باذخاً إذا حظي بوسام «لاجون دي نور».

شكرت السفير بحرارة، وقبل خروجه قال:

- هناك ميزة إضافية. عندما تدخل مطعماً في باريس وأنت ترتدي هذا الوسام يحتفي بك «الميترودوتيل» ويأخذك إلى أحسن طاولة.

ماذا يفعل الإنسان بالأوسمة في الرياض؟ ظل الوسامان حبيسين في مكان ما لا تعرفه إلا أم البنت والبنين حتى جاءت حملة اليونسكو وطلبت منها أن تحضر الأوسمة الفرنسية وبالذات «وسام الشرف» . بعد اتصالات هاتفية عبر عواصم أوروبية وعربية عديدة تم العثور على الوسامين.

ذات يوم خرجت وأنا أحمل في ياقة المعطف «وسام الشرف» - بألوانه الثلاثة.

قال أبو أحمد - زياد الغريّض الذي أعتقدُ أنه مدير مكتبي، ويعتقد هو أني مدير مكتبه -مستغرباً:

- ما هذا الشيء؟!

قلت:

- هذا الشيء وسام الشرف.

وأضفت:

- وسوف ترى الليلة كيف يعاملوننا في مطعم الفندق.

في المساء ذهبنا إلى المطعم الذي نقابل فيه -عادة- بشيء من الاحترام، بمقاييس جرسونات فرنسا على أي حال، ورغم الحجز، ورغم الوسام ظللنا «ملطوعين» قرب الباب.

قال أبو أحمد شامتاً:

- لم ينفع الوسام!

قلت:

- إشعرّف الثور أني عنتر؟!

في صبيحة اليوم التالي، زارني صديق فرنسي لاحظ الوسام على الفور، وبدأ يعاملني كما لو كنت نابليون بونابرت. قال الصديق:

- هذا وسام الشرف!

قلت:

-نعم!

قال:

- له ميزة إضافية.

قلت:

- أعرف! أي جرسون يراك ترتديه يأخذك إلى أفضل طاولة.

قال:

- صحيح. وهناك ميزة إضافية أخرى.

قلت:

- خير؟

قال:

- أي عسكري يراك ترتديه يقف ويضرب لك تعظيم سلام.

الحق إني أخاف من عساكر فرنسا خوفاً لا يعادله

obeikandi.com

سوى خوفي من جرسوناتها. تعودت في لندن على العسكري الأعزل المبتسم. في عاصمة النور حتى شرطي المرور مدجج بمختلف أنواع الأسلحة الفتاكة، والعصي والكلبشات، حتى أن المرء ليشعر أن ثورة جديدة هبت في العاصمة وأن كل شرطي استنفر للدفاع عن «الأليزيه» ضد الغوغاء الثائرين حتى آخر رصاصة.

عادة نذهب على متن «اليوروستار» بين لندن وباريس بلا مشاكل. صحيح أنني أصاب بالرعب المعتاد أمام موظف الجوازات. وهو مدجج بالسلاح بدوره، إلا أن العملية تنتهي في أغلب الأحوال بعد دقيقتين من تفحص الجواز ودقيقتين من تفحص محياي الوسيم. بعد خروج الصديق، قلت لأبي أحمد:

- تعظيم سلام! سوف أضع الوسام غداً عند سفرنا وسوف ترى كيف يهب العساكر والضباط من رتبة مشير فما دون، ويقفون «زنهار» ويسلِّمون.

أبو أحمد الذي يتقن اللهجة اللبنانية حيث إنه

قضى طفولته السعيدة في مدارس داخلية فخمة في بيروت، ولا يعرف اللهجة المصرية وخصوصاً الكلمات «الغلجة» قال:

- وما «الزنهار»؟

قلت:

- سوف ترى بنفسك في محطة القطار.

ذهبنا إلى المحطة والوسام العتيد على معطفي وقد استبعدت في آخر لحظة فكرة حمل يافطة باللغة الفرنسية تقول «وخّر عن الدرب! هنا وسام شرف!».

وقفنا أمام موظف الجوازات المدجج بأسلحة الدمار الشامل. أعتقد أنه بمجرد أن رأى الوسام أيقن أنني سرقته من كونت باريسي - وإلا فكيف يُعطى وسام الشرف لإنسان لا يتكلم الفرنسية؟! استغرق البحث في الجواز عشر دقائق، والتأمل في ملامحي عشر دقائق، والبحث في القوائم السوداء والصفراء والزرقاء عشر دقائق، ولم يفرج عنّا الموظف إلا قبيل رحيل القطار.

obeikandl.com

أخذ القطار ينهب الأرض (وهذا تعبير غريب فمنذ كنت في الابتدائية والسيارات والقطارات والدراجات تنهب الدرب ولا يزال الدرب على حاله) وحولنا تمتد الحقول والغابات الفرنسية الخضراء، الخالية من البط والحمام.

قال أبو أحمد بخبث:

- لم تقل لي ما هو «الزنهار»!

اقتلعت الوسام من مكانه الوثير على المعطف وأدخلته الحقيبة، وقلت لأبي أحمد:

- اللي ما يعرف الصقر يشويه!

obeikandl.com